الأبعاد الثقافية للمواجهة البترولية

د. فؤاد زكريا *

مقدمة : ـ

يتفق الجميع على ان النزاع البترولي بين الدول المنتجة والدول المستهلكة نزاع اقتصادي وسياسي . وكلما اشتدت حدة هذا النزاع ، وادرك الغرب ان مفاتيح اساسية لحياته الاقتصادية اصبحت في ايد غريبة عنه ، تستطيع ـ اذا استدعت الظروف ـ أن تسد شرايين الطاقة التي تحرك مصانعه ، وان توقف عجلة الانتاج في مجتمعاته ـ كلما حدث ذلك ، سارع الغرب الى اجراء الدراسات وعقد المؤتمرات والندوات التي تتناول الجوانب الاقتصادية والسياسية لهذا الموضوع الحيوي ، آملا في أن يعينه ذلك على ضمان التعاون بينه وبين الدول المنتجة بحيث يستبعد نهائيا الاحتمالات المزعجة لانقطاع الموارد البترولية أو ارتفاع أسعارها الى الحد الذي يلحق اضرارا مدمرة بالاقتصاد الغربي .

على أن هذه الدراسات والمؤتمرات التي تلاحقت في الغرب ، في الآونة الأخيرة ، قد تركزت على الجوانب السياسية والاقتصادية للنزاع . وظل هناك ، بعد هذا كله ، احتمال قائم : الا يمكن ان تكون لهذا النزاع ابعاده الثقافية أيضا ؟ اليس من المحتمل ان يكون للصراع الثقافي الطويل بين الشرق والغرب ، منذ العصور الوسطى حتى اليوم ، دوره في المواجهة الحالية بين

★ حصل على الدكتوراه من جامعة عين شمس عام ١٩٥٦ .

قام بالتدريس في جامعة عين شمس من عام ١٩٥٢ ، وشغل منصب استاذ عام ١٩٧٠ . تولى رئاسة تحرير مجلتي « الفكر المعاصر » و « تراث الانسانية » عام ١٩٦٨ .

كان مقررا لمجلس العلوم الاجتماعية التابع لاكاديمية البحث العلمي بالقاهرة ، ورئيسا ومقررا لعدة اجتماعات نظمتها اليونسكو للجنة دراسة الثقافة العربية المعاصرة . ومثل مصر ثلاث مرات في المؤتمر العام لليونسكو بباريس .

من اواخر المؤلفات التي ظهرت له : ـ **مشكلات الفكر والثقافة** . القاهرة . مطبعة هيئة الكتاب ، ١٩٧٥ . ـ **جمال عبد الناصر والتحرر المصري** . القاهرة . مطبوعات روز اليوسف ، ١٩٧٥ .

ـ **الجوانب الفكرية في مختلف النظم الاجتماعية** . القاهرة . مطبوعات جامعة عين شمس ، ١٩٧٤ .

المنتجين والمستهلكين ؟ الا يجوز ان المفاوض على مائدة اجتماعات المنتجين والمستهلكين ، أو صانع القرار السياسي من كلا الطرفين ، لا يتخذ قراره بوصفه رجل اقتصاد او سياسة فحسب ، بل ايضا بوصفه انسانا ينتمي في الغالب الى حضارة شرقية اسلامية اذا كان منتجا ، أو انسانا ينتمي الى حضارة غربية مسيحية اذا كان مستهلكا ، ويحمل معه تاريخا طويلا من النزاعات والصراعات والحزازات يتحكم ، عن وعي أو بغير وعي ، في الموقف الذي يتخذه ؟

من اجل استطلاع امكانات هذا الاحتمال ، عقد مركز دراسات البحر المتوسط Center for Mediterranean Studies التابع لهيئة الاساتذة الميدانيين المنتمين الى الجامعات الامريكية American Universities Field Staff (Aufs) حلقة دراسية في روما بعنوان : « **المواجهة البترولية في علاقتها بالهويات القومية والتطورات والاتجاهات الثقافية .** » : The Petroleum Confrontation National Identities ، Perceptions and Cultural Attitudes

وذلك خلال الفترة الواقعة بين ٢٢ و ٢٩ نوفمبر ١٩٧٥ . وقد دعي الكاتب الى الاشتراك في مناقشات هذه الحلقة وكتابة بحث فيها . وكانت قد سبقتها حلقتان اخريان ، الاولى عقدت في عام ١٩٧٢ بعنوان « **تغيير ميزان القوى في الخليج** » ، والثانية في عام ١٩٧٤ بعنوان : « **منتجو الزيت ومستهلكوه: نزاع أم تعاون ؟** » كما أن من المقرر ان تكون قد اعقبتها حلقة اخرى في يونيو الماضي ١٩٧٦ ، وتتناول موضوعا مبنيا على موضوع الحلقة التي يتناولها هذا البحث ، وهو « **التعديلات التي يمكن ادخالها على المؤسسات القائمة استجابة للمواجهة البترولية** » .

وقد عقدت الحلقة التي يتحدث عنها هذا البحث برئاسة المستر فيلبس تالبوت ، الوكيل السابق لوزارة الخارجية الامريكية لشئون الشرق الاوسط وآسيا ، واشترك فيها اربعة وعشرون عضوا ، معظمهم من الميدان الاكاديمي ، يمثلون العالم العربي وايران وتركيا والدول الاوروبية وامريكا .

والامر المؤكد هو أن مجرد التفكير في عقد ندوة كهذه يدل على اهتمام — يصل الى حد القلق الشديد — بمشكلة البترول في العالم الغربي . فالهيئة الداعية هيئة امريكية ، والتمويل اشتركت فيه مؤسسة صناعية المانية غربية ، وعدد المشتركين من الدول المستهلكة للبترول يفوق عددهم من العالم العربي والاسلامي بنسبة الضعف . والموضوع ذاته يحيط به جو من الغموض الشديد : فهو يتعلق بمشكلة غير محسوسة ولا ملموسة ، بشيء يظن انه يوجد في كوامن العقول لا في الفكر الواعي ، بماض قديم يعتقد انه يمتد الى الحاضر ويمارس تأثيره عليه لا شعوريا . والدليل القاطع على القلق هو تلك الرغبة في استطلاع

كل الافاق ، حتى ما كان منها مستبعدا أو غير متصور ، من أجل البحث عن مخرج للازمة التي يعاني منها العالم الغربي بعد ان اصبحت مصادر طاقته غير خاضعة لسيطرته .

ولكن التفكير في بحث موضوع كهذا يقدم ، من جهة اخرى ، دليلا على اتساع الافق وبعد النظر في دراسة المشكلات السياسية والاقتصادية . فالموضوع لا يخطر ، في اغلب الاحيان ، على بال احد ممن يعالجون المشكلات بالطريقة المباشرة ، ويبحثون عن الحلول القريبة لكل ما يعرض لهم من ازمات . ولذلك فان مجرد اختيار موضوع كهذا للبحث يعد درسا ينبغي أن نعيه جيدا في عالمنا العربي : اعني درسا في كيفية تطويع الدراسات العلمية والانسانية بكل فروعها ، من أجل خدمة الاهداف السياسية والاقتصادية للمجتمع .

ولا شك ان مصدر الصعوبة الكبرى في هذا الموضوع هو وقوعه على الحدود بين الثقافة والسياسة (مفهومة بالمعنى الواسع ، الذي يشتمل في داخله على الاقتصاد) . فالحلقة الدراسية لم تنعقد لكي تدرس العلاقة بين الحضارة الاسلامية والحضارة الغربية من زاوية ثقافية خالصة . ولم تجتمع لكي تبحث في المواجهة الاقتصادية والمالية بين منتجي البترول ومستهلكيه ، وانما اجتمعت لكي تبحث في الموضوعين ، ولكي تحاول ان تقيم علاقة سببية بينهما ، أي ان تدرس العلاقات الثقافية بين الحضارتين من حيث هي عامل من العوامل التي تؤثر في طبيعة المواجهة بين المنتجين والمستهلكين . ومثل هذه الدراسات الواقعة على الحدود معرضة لخطر الانزلاق في أحد الجانبين : فاما أن يسودها أسلوب المعالجة الثقافية ، بما فيه من تجريدات وتعميمات ، وشطحات في بعض الاحيان ، فيشعر السياسي بانه يقف على ارض مهتزة لا مكان له فيها ، وأما أن يسودها أسلوب المعالجة السياسية ، بما فيه من واقعية وصرامة واهتمام بالدقائق والتفاصيل ، فيشعر رجل الثقافة بانه في مجال غريب عنه .

لهذه الاسباب كان من الصعب توقع الوصول الى نتائج نهائية حاسمة في ندوة كهذه ، وذلك على الاقل لانها تفترض فيما معينا للعوامل المتحكمة في اتخاذ القرار السياسي ، لا يمكن القول انه فهم يستقر عليه الاجماع . لكن الارجح أن الوصول الى نتائج ايجابية لم يكن أمرا مطلوبا منذ البداية . بل كان المطلوب هو أن يعرف ممثلو الطرفين — العربي والاسلامي من جهة ، والغربي من جهة اخرى — رأي كل منهما في الآخر ، من الوجهة الثقافية ، ويعرض كل طرف العوامل التي يعتقد انها تتدخل في الموقف الذي يتخذه من المواجهة البترولية . اما الانتهاء الى استنتاجات محددة فيكاد يكون مستحيلا في مثل هذا الموضوع المغلف بضباب كثيف . ولذلك فان النتيجة المتوقعة هي ان يستخلص كل طرف

من النتائج ما يشاء ، بعد ان توافرت في الندوة « **مادة خام** » من البحـــوث والمناقشات تسمح باستطلاع افاق الموضوع على مهل .

وسوف تكون مهمة هذا البحث هي استخلاص النتائج التي يعتقد الكاتب ، من وجهة نظره الخاصة ، انها هي التي ينبغي التوصل اليها من مناقشة موضوع كهـــذا .

القضايـــا الاساســـية

كان هناك فرض اساسي كونته الهيئة المنظمة للندوة ووزعته مسبقا على الاعضاء في برنامج عمل يحدد الاطار الذي ستدور فيه البحوث والمناقشات . ومن المفيد ان نقدم هذا الفرض اولا ـــ من خلال ترجمتنا الخاصة له ـــ لكي يتبين الى اي مدى انتهت الندوة الى دعمه او تفنيده .

يقول برنامج العمل :

ان السؤال : « مواجهة ام تعاون » (بين منتجي النفط ومستهلكيه) ، الذي يشغل في الوقت الراهن رجال الاعمال والحكام في البلاد المنتجة والمستهلكة للبترول ، ينطوي على ما هو اكثر من معناه الظاهري الواضح ، اعني ما هـــو اكثر من الصراع بين المصالح التجارية والاقتصادية . ذلك لان معظم البـــلاد الرئيسة المنتجة للنفط ، في الشرق الاوسط وشمال افريقيا ، هي بلاد اسلامية . والمستهلكون الرئيسيون غير مسلمين ، وهم في العادة اوروبيون ، اذا ادرجنا ضمنهم الولايات المتحدة التي ترجع معظم عناصر ثقافتها الى أصول أوروبية . فاسلوب الحوار الحالي بين الطرفين ، بما ينطوي عليه من خلفيات فكريـــة ووجدانية عميقة الجذور ، يدل على أن الطرفـــين المتحاورين متأثران بالنزاع التاريخي الذي امتد طوال ما يربو على الالف عام بين الاسلام والعالم غـــير الاسلامي (دار الاسلام ودار الحرب) ، وأن تفكيرهما خاضع لتأثير سوء الفهم والافكار السلبية المتأصلة التي ترتبت على هذا النزاع التاريخي .

لذلك تعقد هذه الحلقة الدراسية ـــ وهي الثالثة في سلسلة متصلة مـــن الحلقات التي تركز على مشكلات النفط فيما بين المنتجين والمستهلكين ـــ مـــن اجل بحث الدور الذي تقوم به الرموز والاساطير التاريخية ، ومن ثم بحث الدور الذي تستطيع الدراسات التاريخية والمؤرخون أن يقوموا به في المشكلـــة الحالية .

هذه الدراسة الثالثة تأتي بعد دراستين سابقتين نظمهما مركز دراسات البحر المتوسط حول موضوع البترول . الاولى عقدت في روما في يونيو ١٩٧٢ ،

وكانت حصيلتها كتابا ألفته « اليزابيث مونرو » بعنوان : « تغير ميزان القوى في الخليج » . وقد تبين بوضوح ، من هذا اللقاء الأول ، الذي عالج موضوع الاعتماد المادي للعالم الصناعي على موارد الشرق الأوسط ، أن التغير الحاصل في القوة الاقتصادية له نتائج بالغة الخطورة في الميدان المالي ، تؤدي الى اثارة مشكلات كبرى بالنسبة الى النظام النقدي العالمي . لذلك عقد المركز حلقة دراسية دولية أخرى في يوليو ١٩٧٤ ، تستهدف تحديد هذه المشكلات والاحاطة بها . وقد اسفرت هذه الحلقة بدورها عن نشر تقرير بعنوان « منتجو النفط ومستهلكوه : نزاع أم تعاون ؟ » .

وهنا يكون من الطبيعي طرح السؤال المترتب على ما سبق : ما هو نوع المؤسسات اللازمة لمواجهة هذه العلاقة الدولية الجديدة ؟ لقد أثبتت التجارب العديدة ان اجراء المفاوضات أو انشاء المؤسسات والانظمة بطريقة آلية يكون مآله الاخفاق ان لم يكن كل طرف يشارك الطرف الآخر في تصوره للمشكلة ، أو على الاقل يفهم هذا التصور . فكيف يتصور المنتج الآسيوي المسلم ذلك المواطن الاوروبي — الامريكي المنتمي الى عالم صناعي ، والى حضارة مسيحية عبرانية في أغلب الاحيان ؟ وما هي الأساطير والخلفيات التاريخية التي شكلت آراء كل طرف في الآخر — وهي الآراء التي يتعين على كل من الطرفين ، اذا شاء ان يتوصل الى حل سلمي بناء للنزاع ، ان يستخدمها في تغيير نظام قديم وايجاد نظام اقتصادي دولي جديد ؟ لا شك أنه مما يساعد بناة الاطار الدولي الجديد من المؤسسات والانظمة على التخلص من جور النظم السابقة وجمودها ، ان يتكون لديهم وعي بالاخطار الكامنة في أساليب الفهم المعتمدة على نظرة ضيقة الى التاريخ الثقافي ، وما يترتب عليه من معتقدات .

وهكذا رأى المركز أن ينظم هذه الحلقة الدراسية بهدف السعي الى تحديد الأفكار المسبقة والتحيزات والأساطير الخفية التي يحملها داخله كل طرف من اطراف المواجهة البترولية ، على أن يستعان في التحليل الذي يقوم به الباحثون بالدراسات التاريخية والعلوم الاجتماعية والدراسات المتعلقة بدلالة الرموز والأساطير . ويقوم الباحثون بدراسة الطريقة التي ينظر بها المسلمون وغير المسلمين بعضهم الى بعض ، والتصورات التي كونها كل طرف عن الآخر خلال تطورها التاريخي ، والفكرة التي يحملها كل طرف عن الآخر في الوقت الحاضر .

هذا ما تضمنه برنامج العمل عن هدف الحلقة الدراسية والفكرة الأساسية التي بنيت عليها ، كما تصورها منظموها . فالحلقة كانت اذن مرتكزة على مجموعة من القضايا التي تكون فرضيات أو مسلمات افترضت مقدما ، وبني عليها تصور كامل للموضوع منذ البداية . ومن الممكن أن نلخص هذه القضايا فيما يلي : —

القضيـــة الأولى : ــ

ان كل طرف في النزاع البترولي ينظر الى الآخر من خلال صور نمطيـــة ثابتة تكونت على مدى عصور طويلة ، معظمها غير صحيح وغير مطابق للواقع (اي من خلال ما يسمى « بالأسطوره myth » بمعنى موسع لهذه الكلمة) .

القضية الثانيـــة : ــ

ان الصورة التي كونها كل طرف عن الآخر خلال التاريخ ما زالت ممتدة ، في اهم عناصرها على الأقل ، حتى العصر الحاضر .

القضية الثالثة : ــ

ان هذه الصورة الخفية الممتدة حتى الوقت الحاضر تمارس تاثيرها على المفاوض وصانع القرار من كلا طرفي المواجهة البترولية .

القضية الرابعـــة : ــ

انه اذا امكن الكشف عن هذه الأفكار النمطية الاسطورية وتصحيحها ، بعد ادراكها عن وعي ، فان طرفي النزاع سوف يتخلصان من عقبة كبيرة تؤدي بكل منهما الى التشدد ازاء الآخر .

القضية الخامسة : ــ

ونتيجة هذا كله أن يحل التعاون بين الطرفين محل المواجهة والنزاع .

هذه هي اهم القضايا او المسلمات التي يمكن استخلاصها من برنامج عمل الحلقة كما وضعته الهيئة المنظمة لها . وفي اعتقادي ان كلا من هذه المسلمات قابلة للمناقشة . ولذلك فان من اهداف هذا البحث وضع هذه المسلمات موضع النقد والتحليل ، ومن ثم اصدار حكم على الفرضية الاساسية التي ارتكـــزت عليها الحلقة الدراسية ، واعني بها وجود رواسب متخلفة من الصراع الثقافي القديم ، والنزاع الديني بوجه خاص ، تتحكم في الموقف الذي يتخذه كل مـــن منتجي البترول ومستهلكيه في المواجهة البترولية الحالية ، وتحديد المدى الذي يمكن القول فيه ان العوامل الثقافية لها دور في النزاع البترولي .

القضيـــة الأولى

التطور التاريخي لصورة الغرب المسيحي في العالم الاسلامي :

ما هي اذن تلك الرواسب التاريخية المتخلفة في العقل الشرقي الاسلامي عن الغرب المسيحي ، وهي الرواسب التي يفترض انها تمارس تأثيرا خفيا على المفاوض وصانع القرار السياسي في البلاد المنتجة للبترول ؟

لا بد لنا ، كيما نجيب عن هذا السؤال ، ان نقدم عرضا تاريخيا للصور المختلفة التي كونها العالم الاسلامي عن الغرب المسيحي على مر العصور ، بادئين بالعصر الاسلامي الأول ومتدرجين حتى العصر الحاضر . وبفضل هذا العرض التاريخي سوف نتمكن من الاجابة عن سؤالين اساسيين :

١ ـــ ما الفرق بين تصور العالم الاسلامي للغرب ، وتصور الغرب للعالم الاسلامي ؟

٢ ـــ ما هي العناصر الباقية حاليا في تلك الصور التاريخية المتعاقبة ، وايها أقوى تأثيرا في العقل العربي الاسلامي في الآونة الاخيرة ؟

لم يكن الالتقاء بين الثقافتين ، الاسلامية والغربية ، التقاء بين طرفين بينهما تضاد كامل ، اذ ان الثقافتين متجاورتان جغرافيـــا ، ومشتركتـــان في انتمائهما الى عقائد توحيدية ، فضلا عن ان المسيحية قد انبثقت من قلب منطقة الشرق الأسط ، التي نبع منها الاسلام واليهودية ايضا .

ومع ذلك فاذا كان التقارب يؤدي احيانا الى تخفيف حدة التضاد بـــين الثقافتين ، فانه يثبت في أحيان أخرى ان الصراع بين الثقافات التي تجمعها قيم مشتركة قد يكون أشد حدة من الصراع بين ثقافات لا تشترك في شيء .

ولقد كانت اهم الصور التي عرف العالم الاسلامي الغرب من خـــلالها عبر العصور هي :

١ ـــ عرف الاسلام الغرب اولا بوصفه حكمة وثنية موروثة عن الاغريق . ومن المهم ان ندرك أن هذا الالتقاء الأول ، على خلاف الالتقاء الحالي بـــين الثقافتين الشرقية والغربية ، كان لقاء مع تراث تم تكوينه وانتهى تطـــوره . ومهما كان من عظمة هذا التراث واعجاب المسلمين الاوائل به ، فان هذا التراث لم يكن يمثل قوة حية ، تنتقل الى مواقع جديدة على الدوام ، وتتقدم بمعدل يتجاوز كل محاولة للحاق بها ، كما هي الحال في العلاقة الراهنة بين ثقافـــة

العالم الاسلامي والثقافة الغربية الحديثة . فالحكمة اليونانية كانت قد قالت كلمتها وسكتت .

ولعل هذا يعلل السهولة النسبة التي أخذ بها العرب يترجمون المؤلفات الفلسفية والعلمية اليونانية ويدرسونها ويشرحونها ويعلقون عليها ، في وقت كانت فيه العقيدة الاسلامية لا تزال في شبابها ، اي في الفترة التي كان من المتصور ان يسودها التعصب للعقيدة الجديدة ورفض اي شكل مخالف من اشكال الفكر . ولو قارنا هذا الترحيب القديم بالحكمة الاغريقية ، بالتردد الذي نجده لدى الشرق الاسلامي المعاصر ازاء المؤثرات الثقافية الغربية ، وبالمعركة التي لا تزال دائرة حول الأصالة والمعاصرة في العالم العربي ، لما كان للاختلاف بين الموقف القديم والموقف المعاصر من تعليل سوى أن المؤثر الأجنبي كان في الحالة الاولى يمثل تراثا منتهيا ، على حين انه في الحالة الثانية قوة حية متجددة ، ومهدده للقديم ، على الدوام .

وعلى اية حال فان الحكمة الاغريقية قامت بدور أساسي ، لا في توسيع الأفق الفعلي للمفكرين الاسلاميين فحسب ، بل أيضا في القاء مزيد من الضوء على الفكر الاسلامي الأصيل ، وقدمت للعقيدة منهجا جديدا تعرض به تعاليمها وتدافع به عن نفسها . على ان هذا الدور قد اثبت أنه سلاح ذو حدين ، اذ ان اولى مظاهر الخروج على الاطار التقليدي للوحي الاسلامي قد بدأت باستخدام المنهج العقلي الذي اتاحه الاتصال بالحضارة اليونانية .

٢ — وفي المرحلة الأولى للاسلام ، كانت المسيحية معروفة للمسلمين بوصفها عقيدة سماوية لها احترامها ، وكان المسيحي يعد ، على المستوى الديني ، من « أهل الكتاب » ، ويعامل على المستوى الاجتماعي والسياسي بوصفه « من اهل الذمة » . وفي هذه الفترة كان التسامح ازاء المسيحيين القاطنين في العالم العربي حقيقة واقعة ، وكانت صورة المسيحية ذاتها هي صورة العقيدة التي تعد خطوة صحيحة في طريق طويل ، هو طريق الوحي الالهي الذي يؤدي في النهاية الى الاسلام ويختتم به .

٣ — ثم عرف الاسلام الغرب المسيحي معرفة مباشرة من خلال الغزو العسكري . وقد اتى هذا الغزو من كلا الجانبين : فمن الجانب الاسلامي كان فتح الأندلس واستيلاء العرب على جزر هامة في البحر المتوسط ، هو اول لقاء مباشر بين الثقافتين . ومن الجانب الغربي كانت الحروب الصليبية لقاء ذا طابع آخر ، أكثر عداء ودموية ، وان ترتب عليه نتائج ثقافية واقتصادية هامة ، كان تأثيرها على الجانب الاوروبي شديد الوضوح . ومن المعروف ان المراحل المتأخرة من هذه الحروب لم تكن تتسم بنفس القدر من

العداء الذي اتسمت به مراحلها الأولى ، بل ان بعض العادات العربية قد انتقلت الى خصومهم الغربيين ، كما هي الحال عند فردريك الثاني الذي اخذ عن العرب كثيرا من صفاتهم ، وكان حسب التعبير المشهور — اقرب الى ان يكون ملكا عربيا منه الى أن يكون زعيما للعالم المسيحي .

وعلى الرغم من ان الصراع كان في هذه المرة دفاعا عن قيم دينية ، فقد ترتبت عليه نتائج ثقافية واقتصادية وسياسية بالغة الاهمية ، وكان الغرب هو الذي جنى اعظم الفائدة من الاحتكاك بحضارة كانت متفوقة عليه بلا ادنى شك . فقد ادت سيطرة العرب على صقلية الى انتقال عناصر هامة من الثقافة العربية الى جنوب ايطاليا ، فلم يكن من قبيل المصادفات ان تكون ايطاليا اول بلد انتقلت فيه أوروبا من تخلف القرون الوسطى الى استنارة عصر النهضة .

ولقد كان القرن الثاني عشر نقطة تحول فاصلة في العلاقات بين الثقافتين : ففي ذلك القرن كانت الثقافة العربية قد بدأت تهبط من القمة التي بلغتها ، وفي الوقت ذاته كان الغرب قد تشبع بما اخذه عن العرب عن طريق الاتصال المباشر والترجمة والعلاقات التجارية . وكان من الطبيعي ان يفترق طريقا الثقافتين ، وخاصة في عهد سيطرة الاتراك : اذ ان سقوط القسطنطينية في ايدي العثمانيين، واحتلالهم للبلقان وتهديدهم لشرق اوروبا ووسطها ، قد زاد من روح العداء ضد الاسلام في وقت كانت لا تزال فيه ذكريات الحروب الصليبية غير بعيدة عن الأذهان . وكان التعصب وضيق الأفق الذي مارسه الحكم التركي ، لا على الخصوم وحدهم بل على المسلمين الواقعين تحت السيطرة العثمانية أيضا ، عاملا هاما من عوامل ازدياد العداء بين الغرب وبين الثقافة الاسلامية بأسرها ، التي اصبح البعض في الغرب يجعلونها مرادفة للفظ « الترك » .

ومنذ القرن السادس عشر ازداد تدهور العالم الاسلامي نتيجة لانغلاقه على نفسه ورفضه التعامل — على المستوى الثقافي — مع العالم الخارجي ، واكتفائه بفهم تقليدي للدين . وفي هذا الوقت نفسه كان الغرب ينمي ثقافته ويتوسع اقتصاديا وتجاريا ، ويطرد النفوذ الاسلامي من الأقاليم التي كانت واقعة تحت سيطرته ، ابتداء من اسبانيا حتى طرق التجارة الموصلة الى الشرق الأقصى . وكانت النتيجة الطبيعية لذلك هي ازدياد الفجوة بين العالم الاسلامي المتخلف ثقافيا واقتصاديا ، والعالم الغربي الناهض المتمتع برخاء مادي هائل . وقد ادى هذا التفوق الغربي الى نتيجتين متناقضتين :

٤ — فقد بدأت تتكون في العالم الاسلامي صورة للغرب بوصفه صاحب الحضارة الرائدة في ميدان العلم والثقافة ، وكانت انجازات تلك الحضارة من

الروعة بحيث لم يكن في وسع العالم الاسلامي ، مهما كانت درجة انطوائه على ذاته ، أن يتجاهلها . صحيح أن البعض في هذا العالم كان يستخف بتلك الانجازات ، ويصفها بأنها مجرد تقدم « مادي » ؛ ولكن رد الفعل هذا كان يكذبه الواقع الفعلي الذي يثبت على الدوام أن التقدم « المادي » الغربي كان يجلب معه أيضا تقدما مماثلا في ميادين روحية وذهنية عديدة . وفي مقابل ذلك كان هنالك رد فعل آخر يرى أن الغرب قد استمد العناصر الأولى لحضارته الحديثة — في عصر النهضة — من العلم والفكر العربي الذي انتقل اليه من أسبانيا ، ومن ايطاليا ، وأن العلم الأوروبي الحديث هو ، بمعنى ما ، تكملة للجهد الذي قام به العلماء العرب في عصرهم الذهبي ، ومن ثم فان الحضارة العلمية الأوروبية هي — بمعنى ما — التي حفظت التراث العربي عن طريق تجاوزه وتخطيه ، على حين أن الاكتفاء بالمحافظة على هذا التراث بوصفه « الماضي المجيد » ، بغير تطوير أو تجديد يؤدي الى قتل هذا التراث . وفي هذا الراي التقدمي الثاني يختفي التناقض بين الحضارة العلمية الحديثة والحضارة الاسلامية ، ولهذا كان دعاته يقفون موقفا ايجابيا من انجازات العلم الأوروبي الحديث .

٥ — وفي مقابل ذلك عرف العالم الاسلامي الغرب بوصفه قوة استعمارية متفوقة ، قادرة على احتلاله عسكريا واستغلاله اقتصاديا . واستمر هذا النمط من العلاقة قائما حتى جزء كبير من القرن العشرين . وهنا احس العالم الاسلامي لأول مرة بأن هويته الثقافية والقومية اصبحت في خطر ، وبأن مستقبله مهدد وأن الهوة بينه وبين العلم والتكنولوجيا التي اعطت الغرب كل هذا التفوق أصبحت سحيقة .

وازاء هذا الواقع الجديد ظهرت ردود فعل متباينة :

فقد ظهر اتجاه الى المزيد من الانطواء على الذات والاكتفاء بتذكر الأمجاد الماضية واحياء أسطورة التفوق الروحي للشرق .

وظهر اتجاه آخر قريب ، ولكنه أكثر ايجابية ، يعمل على تأكيد الهوية القومية في وجه محاولات « الاستيعاب » الاستعمارية عن طريق الرجوع الى التراث والتمسك به بوصفه أداة فعالة لمقاومة الاستعمار . وقد تمثل هذا الاتجاه — الذي درسه الأستاذ « جاك بيرك » بعمق — في موقف بلدان شمال افريقيا ازاء الاستعمار منذ عصر الحملة الفرنسية في أواخر القرن الثامن عشر . هنا لم يكن الاسلام مجرد وسيلة للتميز عن الغرب غير الاسلامي ، بل كان اساسا وسيلة للمقاومة وحافزا على حشد القوى الوطنية وتعبئتها معنويا ضد الاستعمار والاستغلال .

واخيرا كان هناك اتجاه الى مواجهة الغرب بنفس أسلحته ، والبحث عن مصادر القوة فيه من أجل اكتساب ما يعادلها وتوجيهها ضده . وسوف تتاح لنا فيما بعد فرصة الحديث عن هذا الاتجاه .

٦ ــ ومنذ الحرب العالمية الاولى ، ثم بعد الثانية على وجه الخصوص ، عرف العالم الاسلامي ــ وخاصة في المنطقة العربية ــ الغرب على انه حليف للصهيونية ثم منشيء دولة اسرائيل . ولقد كان الغرب منشئها بمعنيين : معنى مباشر . من حيث انه هو الذي امدها بالعون المادي والمعنوي والبشري الذي اتاح لها أن توطد أقدامها في هذه المنطقة من العالم ، ومعنى غير مباشر ، من حيث ان نمط العلاقة الخاصة بين اليهودية والمسيحية في أوروبا كان مسئولا الى حد كبير عن اتجاه اليهود الى تكوين دولة خاصة بهم ، وكان الاضطهاد الذي لحق بهم على يد الغرب ، وخاصة في العهد النازي ــ وهو اضطهاد لم يكن له اي نظير في تاريخ العالم الاسلامي ــ من اهم الأسباب التي هيأت الراي العام العالمي لقبول فكرة انشاء دولة اسرائيل .

وهكذا نظر العالم الاسلامي الى الغرب على انه قد ساعد على زرع جسم غريب في أرضه ، لاسباب لم يكن هو مسئولا عنها ، ومن ثم فانه اسهم في تشريد أحد الشعوب العربية ، وكان له دور في جميع المشاكل والمعارك التي تعاقبت على العالم العربي منذ قيام اسرائيل . .

٧ ــ وفي مقابل ذلك ، ظهر الغرب امام العالم الاسلامي ، منذ الحرب العالمية الثانية ايضا ، على انه ايديولوجية مضادة للشيوعية . وهذا المظهر يعمل ، بالنسبة الى كثير من البلاد الاسلامية ، في اتجاه مضاد لذلك الذي يؤدي اليه المظهران السابقان : فبينما يؤدي الاستعمار الغربي ــ الذي لم تختف اشكاله الاقتصادية بعد ــ وكذلك مساعدة الغرب لاسرائيل ، الى تباعد العالم الاسلامي عنه ، فان اتجاهه المضاد للشيوعية يؤدي الى تقريب عدد غير قليل من الدول الاسلامية الى الغرب . ومن هنا كان ذلك الطابع المزدوج المعقد لعلاقة العالم الاسلامي بالغرب : ففي بعض الدول يعد بقاء الاستعمار ومساندة اسرائيل هو الخطر الحقيقي ، على حين ينظر الى خطر الشيوعية على انه ثانوي الاهمية ، وفي هذه الدول يقوي الشعور المعادي للغرب . وفي دول اخرى تغلب الرغبة في مقاومة الشيوعية على اي اعتبار آخر ، وان كان الغرب يثير لدى الجميع ، حتى المتحالفين معه ، شعورا بعدم الارتياح ، بسبب الحساسية التي يثيرها ارتباطه بانشاء اسرائيل .

هذه اللقاءات المتعددة مع الغرب ، هي التي تكونت منها الصورة المعقدة

للغرب في العالم الاسلامي على مر العصور .

ومن هذا العرض التاريخي نستطيع أن نستخلص الاجابة عن جزء من القضية الاولى التي ذكرنا من قبل ان هذه الندوة تفترضها مقدما ، وهي القضية القائلة ان كل طرف في المواجهة البترولية ينظر الى الآخر من خلال صور نمطية ورواسب اسطورية تكونت على مر العصور .

ويظل أمامنا ، لكي تكتمل مناقشتنا لهذه القضية الاولى ، أن نعقد مقارنة بين تصور كل من الحضارتين : الاسلامية والغربية المسيحية للاخرى ، لكي نستخلص ما بين التصورين من فوارق خلال مراحل اللقاء العديدة بينهما .

الفرق بين تصور الاسلام للغرب ، وتصور الغرب للاسلام .

١ ــ على المستوى الديني البحت ، يوجد اعتراف غير متبادل من الاسلام بالمسيحية . فالعقيدة الاسلامية تنطوي في صميمها على اعتراف بالمسيحية وتمجيد للمسيح وتأكيد لقداسته . وهناك آيات كثيرة تضع « اهل الكتاب » في منزلة رفيعة . أما من الجانب المسيحي فالاسلام غير معترف به ، وهو من الناحية الدينية البحتة يوصف بالبطلان . وفضلا عن ذلك فان الاسلام ينطوي على تفسير غير مقبول ــ من وجهة النظر المسيحية ــ لعناصر أساسية في العقيدة ، مثل الوهية المسيح وطريقة موته والتثليث . وعلى حين أن الاسلام ينظر الى تفسيره هذا على أنه نقد عادي من عقيدة لعقيدة أخرى معترف بها ، حيث يرى في المسيحية « خطوة » في الاتجاه الصحيح اي في اتجاه الاسلام ، ويربطها بالاسلام في علاقة تكامل ، فان المسيحية لا تتقبل هذه التفسيرات وترفض الاسلام كعقيدة سماوية .

ولا شك ان عدم تبادل الاعتراف بين العقيدتين هو الذي جعل الاسلام أكثر تسامحا في كثير من المواجهات التي حدثت بينه وبين المسيحية ، بحيث لم يسد التعصب الا في الفترات التي كانت فيها العقيدة الاسلامية ذاتها تعاني من سوء الفهم ضيق الافق .

٢ ــ وعلى المستوى السياسي والاجتماعي لم تعرف العقيدة الاسلامية، خلال جميع لقاءاتها مع الغرب ، ذلك الفاصل بين الجوانب النظرية للعقيدة والجوانب العملية للحياة ،او بين الفاصل الزمني والروحي بوجه عام .فهناك تداخل بين ما ينتمي الى الدين وما ينتمي الى ميدان التنظيم الاجتماعي والسياسي ، وربما كان هذا التداخل مصدرا لكثير من مظاهر سوء التفاهم التي نشأت خلال التقاء الثقافتين .

ومن النتائج الهامة لهذا التداخل ، في العصر الحديث ، الارتباط الوثيق بين الدين والروح الوطنية وبينه وبين القومية وروح الجهاد . ففي عصر مكافحة الاستعمار ، كان الاسلام يقوم بدور وطني هام . وفي الوقت الحالي يتداخل العاملان في مواجهة اسرائيل ، وكذلك في السعي المستمر الى تحقيق وحدة عربية .

وقد انعكس هذا التداخل بين العاملين الزمني والروحي في الاسلام على نظرة المسلمين الى الغرب المسيحي بدوره : فصورة المسيحي لم تكن مجردة الا في الفترة الاولى من العصر الاسلامي ، اي في وقت الدعوة الى العقيدة الجديدة ، أما في العصور اللاحقة فقد اصبحت هذه الصورة مرتبطة على الدوام بعناصر سياسية او اجتماعية : اذ ينظر اليه دائما على انه المسيحي « الدخيل » ، او المسيحي الغازي ، او المسيحي المستعمر ، بل ان هذه العناصر اخذت بالتدريج تغلب العنصر الديني الخالص وتحل محله ، مما جعل باحثا مسيحيا من رجال الدين مثل « لوي جارديه » يعترف بهذه الحقيقة آسفا ، فيقول : « انه لمن المحزن ان عبارتي « اهل الغرب » و « الامبريالية » قد اصبحتا في نظرهم (اي في نظر العرب) مترادفتين ، وان الكنيسة والمسيحية لم تعد في نظرهم الا ظاهرة ثانوية عارضة في العالم الغربي » . (انظر رقم ٦ في قائمة المراجع) .

وفي ضوء هذه الحقيقة يصبح من الصعب الى حد بعيد عزل العنصر الديني على حدة ، ودراسة تأثيره مجردا في العلاقة بين العالم الاسلامي والعالم الغربي المسيحي .

٣ ــ وعلى المستوى الاخلاقي ، كان كل طرف يتهم الآخر بانه يسلك سلوكا ماديا فجا في حياته ، وينسب الى نفسه مزيدا من الروحانية . وهذا الاتهام المتبادل بالمادية امر ملفت للنظر في علاقة العالم الاسلامي بالغرب . ذلك لان هناك تراثا طويلا في الغرب من العداء للاسلام ، منذ قيام الصراعات الفكرية والعسكرية بين المسيحية والاسلام في العصر الوسيط حتى اليوم . وخلال هذا التراث تكونت صورة للاسلام يبدو فيها عقيدة حسية تشجع على الاغراق في الملذات الجسدية ، وتدعو الى مبـــاديء لا اخلاقية تضفى عليها قداسة الهيه . وربما كان من عوامل تثبيت هذه الصورة في أذهان الغربيين ، المسلك الشخصي لبعض العرب الاغنياء ، وخاصة اولئك الذين يراهم الغربيون في بلادهم . ومن المؤكد ان لهذه الصورة قدرا من التأثير في المواجهة البترولية الراهنة : اذ يشعر الغربيون بان المتاعب الاقتصادية والاجتماعية التي يعانونها من جراء رفع اسعار البترول ، ليس لها من هدف سوى رغبة العرب في اشباع غرائزهم وارضاء نزواتهم ، ومن هنا يأتي جانب كبير من المقاومة ، ومن التشنيع، على المستوى الشعبي العادي في الغرب .

على أن الامر الذي قد يثير دهشة الانسان الغربي العادي هو أن العالم الاسلامي بدوره يتهم الغرب بالمادية . ويكفي أن يقرأ المرء كتابات « محمد اقبال » لكي يقتنع بأن الاسلام الحديث يعيب على الغرب ماديته المفرطة ، ويفخر بروحانيته التي لا يوجد لها نظير في الغرب . وفي كثير من الاحيان يتخذ هذا النقد مبررا للتخلف وعزاء على التأخر في العالم الاسلامي : فالآخرون ، مهما تقدموا ، لا يملكون الا « المادة » ، اما نحن فلدينا روحانيتنا السامية !

والواقع ان هذا الاتهام المتبادل بالمادية هو واحد من تلك الأمثلة التي تلفت النظر حقا لسوء الفهم بين الاسلام والغرب . ويزداد العجب اذا تأملنا الموضوع من اكثر زواياه حدة ، واعني بها نظرة الجانبين الى الجنس . فعلى حين يشيع في الغرب النظر الى المجتمع الاسلامي على أنه يبدي اهتماما زائدا بالجنس ، نجد المفكرين الاخلاقيين الاسلاميين لا يملون من التنديد بالانحلال الجنسي الغربي والتحذير من اخطاره والتفاخر بالعفة التي لا تزال سائدة في العالم الاسلامي ، والدعوة الى التحكم في الشهوات والتمسك بالقيم المحافظة .

على أن الموقف في العصر الحاضر قد ازداد تعقيدا حتى عن هذه الصورة التي هي معقدة اصلا بما فيه الكفاية . ففي سعي العالم الاسلامي الى النهوض والى التنمية ، يبدو انه ادخل تعديلا على اتجاهه السابق الى التفاخر بالروحانية والحملة على التقدم المادي ، ويبدو انه ادرك أن التقدم المادي يمكن أن يجلب معه تقدما روحيا خاصا به ، او أن التعارض بين المجالين ليس بالحدة التي كان يتصورها فيما مضى . ولا شك ان الالتقاء مع الغرب ، والتأثر به كان له دور اساسي في هذا التعديل ، بحيث اخذ العالم الاسلامي يدرك على نحو متزايد أن روحانيته المزعومة لا تكفي لتمييزه عن الاخرين ، وانه لاغناء له عن اقتباس اساليب التقدم المادي من الغرب .

هذا التعديل الجديد في الاتجاه ، الذي هو مستوحى اساسا من الغرب ، هو المسئول قطعا عن ازدياد حدة المواجهة البترولية ، اذ أن احساس العالم الاسلامي بضرورة المشاركة في ركب التقدم المادي واللحاق بالغرب ، هو الذي يجعله أشد حرصا على اكتساب اكبر عائد ممكن من ثرواته الطبيعية .

والنتيجة التي تفرض نفسها ، اذا كان هذا التحليل صحيحا ، هي ان اصرار العالم الاسلامي على استخلاص حقوقه كاملة من ثرواته الطبيعية لا يرجع الى الرغبة في تحقيق نهضة ترتكز على قيم اسلامية خاصة ، بل هو — على خلاف ذلك — مستوحى من انتشار قيم غربية معينة في العالم الاسلامي. وهو يمثل تمردا على النظرة الى الشرق على أنه « روحاني » والى الغرب على أنه « مادي » . وهو دعوة الى الشرق « الروحاني » لكي يخفف من روحانيته

ويسعى الى تحقيق شيء من « مادية » الغرب التي استطاع بواسطتها ان يسيطر طويلا على الشرق . ومن هذه الزاوية تبدو المواجهة الحالية انعكاسا لتأثير القيم الغربية في العالم الاسلامي ، اكثر منها تعبيرا عن التعارض بين القيم الاسلامية والغربية .

٤ — وعلى المستوى الثقافي كانت العلاقة بين الطرفين علاقة أخذ وعطاء . فالفكر الاسلامي قد تلقى قوة كبرى من اتصاله بالثقافات غير الاسلامية ، وخاصة اليونانية ، ولم تكن وثنية هذه الثقافة الأخيرة حائلا بينه وبين استيعابها وتكييفها ، بقدر ما يستطيع ، وفقا لأغراضه الخاصة . ومن جهة أخرى لم تظهر في وقت ازدهار الثقافة الاسلامية عقبات جدية تحول دون اشتغال العلماء بالعلوم الطبيعية وممارستهم لنوع راق من المنهج التجريبي في ابحاثهم ، فضلا عن تقدمهم في العلوم الرياضية ، البحتة منها والتطبيقية . ويشعر العالم الاسلامي بأن النهضة الأوروبية الحديثة تدين بالكثير للثقافة الاسلامية الوسيطة التي كانت هي الثقافة الأرفع في عصرها .

ومن جهة أخرى فان العالم الاسلامي ، في العصر الحديث ، لم يقفل أبوابه في وجه المؤثرات الغربية الا في عصور التخلف الشديد . اما في فترات الازدهار فكان هناك انفتاح واضح على الغرب ، يبرره شعوره بأن الغرب حين يقدم أنجازات ثقافته الحديثة فهو انما يسدد دينا يدين به للحضارة الاسلامية .

القضيـــة الثانيـــة

في ضوء العرض التاريخي السابق للتصورات المتعاقبة التي كونها العالم الاسلامي عن الغرب ، وتحليل الاختلافات بين نظرة كل من الحضارتين الى الأخرى ، نستطيع أن نناقش القضية الثانية من القضايا الخمس التي طرحت في مستهل هذا البحث ، واعني بها السؤال عن العناصر التي لا يزال لها تأثير في تصور العالم الاسلامي للغرب في الوقت الراهن .

والاجابة التي تفرض نفسها ، في ضوء ما سبق ، هي ان للوضع الراهن في العلاقات بين الثقافتين سماته المميزة ، بالقياس الى كل وضع تاريخي سابق . وتتمثل هذه السمات التي لا يمكن ان تعد امتدادا للتصورات القديمة فيما يلي : —

١ — منذ بداية عهد الاستعمار الغربي ، لم يعد الغرب ينظر اليه على أنه مجتمع مسيحي اساسا . ذلك لان الطابع الاستعماري اصبح هو الاكثر ارتباطا بالغرب في نظر العالم الاسلامي ، واخذت صفة المسيحية تضعف بالتدريج وتعد

صفة ثانوية . ولقد ظهرت عوامل متعددة ادت الى تقوية هذا الاتجاه : منهـا المسلك الاستبدادي للقوى الاستعمارية ، وطبيعة الاستغلال البشع الذي مارسته ، بالاضافة الى ادراك العالم الاسلامي لتباعد الغرب المتزايد عـن المسيحية في تفكيره وفي ممارساته اليومية . وكان للدور الذي قـام به الغرب في انشاء اسرائيل اثر كبير في نزع الطابع المسيحي عن تصرفاته في نظر العالم الاسلامي ، وفي ازدياد ضآلة دور العقيدة المسيحية من حيث هي عامل ينبغي عمل حسابه في التعامل مع الغرب .

٢ ـ يختلف الموقف الراهن في علاقة الاسلام بالعالم غير الاسلامي عن الموقف القديم في مسألة اساسية : هي ان الاسلام كان في العصور الوسطى في مركز القوة ، وكان يتخذ ازاء العالم غير الاسلامي موقفا هجوميا توسعيا ، على حين انه الآن في مركز ضعيف ، وموقفه دفاعي في اغلب الاحيان . ولذلك فان تشبث الدول الاسلامية بأي مصدر للقوة ، كالثروة البترولية مثلا ، ينبغي ان يفسر بأنه يرجع الى الرغبة في تحقيق قدر ، ولو قليل ، من التوازن بينها وبين العالم الغربي المتفوق عليها ثقافيا وعلميا وتكنولوجيا ، وفي استعادة قدر ، ولو ضئيل ، من المجد المفقود .

٣ ـ في هذا الموقف الضعيف الذي يقفه العـالم الاسلامـي الآن ازاء الغرب ، يكون من المتوقع أن يزداد تدفق الأفكار الغربية اليه ، وأن يستعين بهذه الافكار في كل محاولة يبذلها لتحقيق نوع من النهضة والبعث . فقد ظهر بوضوح للمصلحين الذين تأملوا كثيرا في اسباب ضعف العالم الاسلامي ، ان طريق الاصلاح لن يكون هو التمسك بالجمود الذي طرأ على الفكر الاسلامي ، وخاصة منذ العهد العثماني ، ولن يكون هو العودة الى التراث القديم بـلا تمييز . فالحضارة الغربية كانت في كل يوم تقدم نماذج رائعة لا يستطيع اي مصلح مخلص ان يتجاهلها . ولكن هؤلاء المصلحين لم يكونوا يريدون قبـول العناصر الغربية على انها غربية ، بل كانوا يريدون ان يصبغوها بصبغـة اسلامية . ومن هنا بدات تلك المحاولات الكثيرة التي بذلت ، ومازالت تبذل ، من اجل البحث عن اصول في الفكر الاسلامي نفسه لمفاهيم غربية حديثـة ، كالعدالة الاجتماعية ، والديمقراطية ، والاشتراكية ، الخ . هذا البحث عـن الأصول يمكن أن يعد ، من وجهة نظر معينة احياء للاسلام وتجديدا له . ولكنه في صميمه قراءة جديدة للاسلام في ضوء تفكير العصر الحديث . وفي هـذه القراءة الجديدة يعد العنصر الحاسم هو العنصر الوافد من الخارج ، لان هذا العنصر هو الذي يحدد ما يركز عليه الضوء في التراث وما يهمل منه ، وان كان هذا العنصر ينسب ـ بأثر رجعي ـ الى أصول اسلامية .

وهكذا تجمع تلك العملية ، في مزيج واحد ، بين احياء القديم عن طريق

اعادة تفسيره وبين الاستعارة او النقل من الخارج . وهي ليست مجرد صبغ للاسلام بصبغة غربية ، ولا صبغ للافكار الغربية بصبغة اسلامية ، بل هي تجديد يتخذ شكل الرجوع الى القديم ، وتحديث Modernization له طابع العودة الى المنابع والأصول . ويبدو ان هذا هو الشكل الأسلم ، والاقرب الى العقل الاسلامي ، للانتقال بالمجتمع الى صميم الحضارة الحديثة . ويبدو ان المسلمين المتمسكين يفضلون الا يأخذوا الحاضر على انه حاضر فحسب ، بل ينسبونه الى الماضي أولا ، ولا يقبلون الوافد والأجنبي الا بعد ان يدمجوه في تراثهم ، ويجعلوه جزءا من اصالتهم . وهكذا تكون هذه الحركة المزدوجة من التجديد والتأصيل اقوى اثرا من مجرد العودة الى التراث ، واعظم فاعلية من الدعوة السافرة والمباشرة الى التشبه بالغرب .

ومن المعروف ان الطرف الأضعف في اي صراع كثيرا ما يلجأ الى استخدام نفس أسلحة الطرف الأقوى لكي يواجهه بها . ولكن في حالة العالم الاسلامي لا تستخدم هذه الاسلحة الا بعد ان تنسب اليه هو ذاته ، وتصبح خاصة به ، أي بعد حدوث عملية توسط Mediation — بالمعنى الهيجلي لهذا اللفظ — عن طريق استيعاب الافكار الوافدة واستملاكها .

ولهذه العملية المعقدة نتيجة لا تقل عنها تعقيدا : فهي تؤدي الى تقريب العالم الغربي الى الاسلام وابعاده عنه في آن واحد . فالأفكار والأساليب الغربية يتم تمثلها ، فتضيق الشقة بين الطرفين ، ولكنها في الوقت ذاته تتسع لان الهدف من استخدامها هو مقاومة الغرب والصمود امام قوته الطاغية .

٤ — وهناك اخيرا عامل جديد لم يظهر تأثيره بوضوح الا بعد الحرب العالمية الثانية ، كان له تأثير هام في تحديد نمط العلاقة بين العالم الاسلامي والغرب . ذلك العامل هو انقسام العالم الى معسكرين ايديولوجيين . وهذا العامل بدوره تترتب عليه في العالم الاسلامي نتائج متناقضة : فبعض الدول الاسلامية تستمد من هذا الصراع بين النظامين العالميين مزيدا من الجراة في مواجهة الغرب (المقصود هنا الغرب الايديولوجي) لان وجود المعسكر الآخر بالقرب من حدود هذه الدول يجعلها في مركز افضل للمساومة . ولكن البعض الآخر يرى في هذا العامل مدعاة الى تخفيف حدة المواجهة مع الغرب ، لانه ادخل خصومة عقائدية اشد ، هي الخصومة بين الايمان وعدم الايمان . فعلى حين ان التضاد الرئيسي ، في ميدان العقائد ، ظل طوال العصور الوسطى ومعظم العصر الحديث هو التضاد بين الاسلام والمسيحية ، فقد ظهر اليوم تضاد اقوى بين الفكر الديني والفكر المستقل عن الدين ، مما قلل من اهمية الفوارق بين العقيدتين في نظر بعض انظمة الحكم الاسلامية . ولكن الحصيلة

النهائية لهذا التضاد الجديد بين الايديولوجيات المعاصرة هي ابراز اهميـــة العوامل الاجتماعية والاقتصادية في حسم الصراعات الحالية ، وخلق اشكال جديدة من الصراع ، غير الشكل الديني الذي كان حاسما في العصور الماضية .

ومن هذا كله نستطيع ان نستنج ، دون خوف من الزلل ، أن الانمـــاط القديمة في العلاقة بين ثقافتي العالم الاسلامي والعالم غير الاسلامي لا تتكرر في الظروف الحاضرة بالضرورة ، وان عناصر اللقاء في العصر الحاضر ليست كلها امتدادا للعناصر التقليدية ، وان الاسلام التقليدي والمسيحية التقليدية قد طرأت عليهما تغييرات اساسية جعلت الاعتبارات المتعلقة بالتضاد بينهما تقل اهميـــة باطراد ، لكي تحل محلها اعتبارات أخرى أصبح لها في عصرنا الحاضر أولوية لا تنكر .

القضيـــة الثالثـــة

بعد أن عرضنا الصور المتعاقبة التي نظر بها العالم الاسلامي الى الغرب على مر العصور ، وبينا أن الصورة التي تكونت في العصر الحديث ليست كلها مرتكزة على خيال أو وهم أو اسطورة تاريخية ، بل ان العالم الاسلامي قد استمد جزءا كبيرا منها من أرض الواقع الصلبة ، واستخلصها من تجارب مريرة لا تنسى ، ثم أوضحنا العناصر التي لا تزال باقية من هذه الصور التاريخية ، والعناصر التي اندثرت ولم يعد لها تأثير في العصر الحاضر ـــ أي بعد أن ناقشنا القضيتين الاولى والثانية من القضايا الخمس التي ارتكزت عليها ندوة « المواجهة البترولية » ، ننتقل الآن الى مناقشة القضية الثالثـــة ، وهي الاعتقـــاد بأن هذه الصورة الخفية الممتدة الى العصر الحاضر تمارس تأثيرها على المفاوض وصانع القرار في كلا طرفي المواجهة البترولية الحالية .

١ ـــ واول ما يلاحظ على هذه القضية ، أنها تفترض وجهة نظر معينة في تعليل التاريخ (أي في السببية التاريخية) تذهب الى ان الافكار والمعتقدات الروحية هي المتحكمة في المواقف الاقتصادية والاجتماعية ـــ وهي وجهة نظر مضادة ـــ كما نعلم ، لوجهة النظر الماركسية ، التي تذهب الى ان المصالـــح الاقتصادية والمواقف الاجتماعية هي التي تتحكم في الافكار والمعتقدات ، أي ان البناء الادنى Infrastructure هو الذي يتحكم في البنـــاء الاعلى Superstructure ولسنـــا الآن بصـــــدد منـــاقشـــة هـــذيـــن الرايين في العليّـــــة التاريخية أو التفضيل بينهما ، ولكن الامر الذي يبدو مؤكدا هو أن العالم يتجه الى التسليم بأهمية العوامل الاقتصادية والاجتماعية في تحديد المواقف السياسية للدول . وكثيرا ما نسمع عبارة « السياسة تخضع للمصلحة » او « ان مواقفنا

السياسية تتحدد وفقا لما فيه مصالحنا » حتى من سياسيين يكنون للماركسية اشد العداء . وفي هذه الحالة يكون من الصعب قبول الراي الذي ترتكز عليه هذه القضية ، واعني به ان الدول حين تتخذ مواقفها في الصراع البترولي يكون العامل الثقافي ، والديني المحض ، واحدا من العوامل المتحكمة في تحديد هذه المواقف .

٢ ــ ومن ناحية اخرى فان هذه القضية تفترض ان هناك صورة موحدة ثابتة للاسلام ظلت تتحكم في عقلية البلاد الاسلامية عبر التاريخ . وهذا الافتراض بدوره قابل للمناقشة ، لان تفسير العالم الاسلامي لعقيدته ، وخاصة في مدلولاتها الاجتماعية والاقتصادية ، قد طرات عليه تغييرات عديدة عبر العصور، فضلا عن ان هناك فوارق ، قد يقلل البعض من شانها وقد يؤكدها البعض الآخر ، بين تفسيرات الاسلام في العالم غير العربي . بل اننا نستطيع ان نهتدي الى فوارق ملموسة في التفسير السياسي والاقتصادي للاسلام داخل العالم العربي ذاته . ففي كل بلد عربي على حدة ، قد يتسع هذا التفسير او يضيق ، وقد يتخذ اتجاها عصريا او اتجاها تقليديا ، وقد يكتسب مضمونا اجتماعيا او مضمونا عقيديا خالصا . وهكذا يصعب الكلام عن موقف اسلامي موحد ، وتفسير معترف به لدى الجميع ، ازاء مشكلة عصرية كمشكلة البترول .

ومن جهة اخرى فليس العالم المسيحي الذي يتعامل معه العرب في ميدان البترول ، عالما متجانسا ، بل انه يتضمن تفاوتا وتباينا ايديولوجيا واضحا . فهو ليس مجرد عالم « آخر » او « غريب » ، وليس مجرد « خصم » او « طرف مقابل » في المواجهة البترولية ، لان الاختلافات الفردية بين دولة واخرى ، من حيث مدى اقترابها او ابتعادها عن المواقف والمصالح الفعلية للعالم الاسلامي ، لها دور بالغ الاهمية في هذه المواجهة .

٣ ــ وحتى لو نظرنا الى الامر من الزاوية الدينية البحت ، فسوف نجد ان ازدياد حدة التضاد ــ على المستوى الديني ــ بين العالم الاسلامي والعالم غير الاسلامي لا يؤدي بالضرورة الى تضاد مناظر على المستوى السياسي والاقتصادي . بل ان من الممكن القول ان انظمة الحكم التي تصف نفسها بانها تتخذ موقفا اسلاميا متشددا ، وتؤكد على هذه الصفة في سياستها الاعلامية ، هي في العادة انظمة اشد اقترابا من الغرب بالقياس الى انظمة الحكم التي تتخذ طابعا اقرب الى العلمانية . ففي الانقلاب الاخير على مجيب الرحمن ، في بنجلاديش ، كانت الدعوى الاساسية للانقلابيين هي العودة الى الاسلام في وجه الاتجاه العلماني لنظام الحكم السابق ، وفي الوقت نفسه اصبح نظام الحكم اكثر موالاة للغرب المسيحي. وفي الانقلاب الذي اطاح بنظام حكم سوكارنو ،

كان الرجوع الى الاسلام شعارا من أهم شعارات النظام الجديد ، ومع ذلك فمن المؤكد أن شركات البترول ترتاح الى التعامل مع سوهارتو أكثر بكثير مما كانت ترتاح الى التعامل مع سوكارنو . وقل مثل هذا عن ايران في عهد مصدق وفي العهد الذي تلاه مباشرة .

ومن ناحية اخرى فان بعض الدول التي تعلن عن التمسك الصارم بالمباديء الدينية (حسب تفسيرها الخاص لها) . تحافظ في داخلها على نظم قبلية تحول دون قيام دولة حديثة ، وان كانت تعد في نظرها ضمانا لاستمرار الاوضاع القائمة . ويترتب على ذلك محاربة الاتجاهات التحررية والدعوة الى بناء مجتمع منفتح على ثقافة العصر ، كما يترتب عليه تغليب الاتجاه الى استخدام عوائد البترول في الاغراض الاستهلاكية المؤقتة على الاتجاه الى استخدامها من أجل تحقيق الاسس الضرورية لتنمية اجتماعية واقتصادية ذات طابع ديمقراطي تعود فائدتها على الجموع الشعبية الكبيرة . مثل هذه الدول لا بد أن تكون أقل صلابة في المواجهة البترولية من الدول التي لا تغلق ابوابها في وجه التفكير الليبرالي ، والتي تضع خططا تضمن تقدما اقتصاديا طويل الامد .

وفي مقابل هذا كله ، فهل يمكن القول ان العالم الغربي ما زال يحتفظ بالمسيحية كعنصر من العناصر التي تتحكم في سلوكه السياسي ؟ ان المرء لا يحتاج الى تفكير طويل لكي يدرك أن الممارسات السياسية للعالم الغربي ، وخاصة مع الشعوب المستعمرة والدول الفقيرة والمتخلفة ، هي أبعد ما تكون عن روح المسيحية ، ايا كان فهمنا لهذه الروح . صحيح ان هناك أحزابا قوية في اوروبا الغربية يتضمن اسمها لفظ « المسيحية » ، وان هذه الاحزاب كانت ، الى عهد قريب ، متفوقة على خصومها لاسباب من اهمها رفعها شعار المسيحية، ولكن حقيقة الأمر أن التحالف بين هذه الأحزاب وبين المسيحية تحالف مصلحة، تضرب به تلك الاحزاب على وتر حساس،وتستغله ضد خصومها الأيديولوجيين الذين يوصفون بالابتعاد عن الدين ، مع أن السلوك الفعلي لهذه الاحزاب — من تأييد سافر للاستعمار والصهيونية ، وتشجيع على الاستغلال والظلم الاجتماعي — بعيد كل البعد عما هو أصيل في المسيحية .

لهذه الأسباب جميعها يكون من الصعب الى حد بعيد ان نجعل العامل الديني البحت واحدا من العوامل المتحكمة في المواجهة البترولية ، سواء من وجهة نظر المنتجين او المستهلكين . وهذا لا يعني ، بالطبع ، الاقلال من شأن الدور الذي لا يزال هذا العامل يلعبه في حياة المجتمعات المعاصرة ، وخاصة في الدول المنتجة ، بل أن هذه مسألة منفصلة تماما . عن تلك ، فليس الموضوع الذي نبحثه هاهنا متعلقا بمكانة الدين في المجتمع ، بل ان من الممكن أن تظل

للدين مكانته العليا ، دون أن يكون مع ذلك عاملا من العوامل التي تقوم بدور في المواجهة البترولية . وهذا هو ما أردنا اثباته في هذا الجزء من البحث .

القضيـــة الرابعـــة

ولكن ، لنفرض جدلا أن الرواسب الدينية الناجمة عن انتماء منتجي البترول الى العالم الاسلامي وانتماء كبار مستهلكيه الى العالم المسيحي ، كان لهـــا تأثير في زيادة حدة المواجهة البترولية في العصر الحاضر ، فكيف يمكن حل المشكلة في ضوء تصور كهذا ؟

هنا يأتي دور القضية الرابعة التي ارتكزت عليها الندوة . فالندوة تفترض انه اذا أمكن وضع نظام ، او مجموعة من النظم التي تكفل توعية كل من الطرفين بالأخطاء التي كان يرتكبها في نظرته الى الآخر ، واذا أمكن تصحيح التصـــور « الاسطوري » المتخلف عن رواسب قديمة ، فسوف يكون ذلك عاملا من عوامل تخفيف حدة المواجهة في جانب هام من جوانبها .

هذا الافتراض يتضمن ، كما هو واضح ، نوعا من العلاج « الفرويدى » لعقدة قديمة يفترض وجودها لدى طرفي المواجهة . ففي التحليل النفسي عنـــد فرويد ، يشفى المريض من عقدته اذا ساعدة المعالج على أن يدركها عن وعي ، وعلى أن يصعد بها من مكمنها الخفي في أعماق اللاشعور الى السطح الظاهر للتفكير الواعي . أما اذا ظلت العقدة كامنة في مستقرها الباطن ، فان تأثيرها سيظل قائما في صورة توتر وتعقد دائم . هذا الموقف ينطبق على التصـــور الاساسي الذي ارتكزت عليه الندوة : فعلى كل من طرفي المواجهة البترولية أن يبحث عن الوسائل الكفيلة بتصحيح هذه الصورة المتوارثة عن عصور غابرة ، والتي لم تعد تصلح للانطباق على العصر الحاضر . وبهذا التصحيح يزول سبب هام من اسباب التوتر المؤدي الى تصلب مواقف الطرفـــين في اي نزاع على الموارد الطبيعية ، وخاصة البترول .

على أن المناقشة السابقة ، التي ادت الى استبعاد تأثير العامل الديني في هذا المجال بالذات ، تكشف لنا عن ضعف الاساس الذي ترتكز عليه وسيلة العلاج هذه . واهم اسباب ضعف هذه الوسيلة ، في راينا ، هو استبعادها لعوامل اخرى تبدو في نظرنا اساسية في المواجهة البترولية ، وتركيزها علـــى عامل واحد لم يثبت تأثيره في هذه الناحية ثبوتا قاطعا .

فما هي اذن تلك العوامل الاخرى التي تمارس اكبر قدر من التأثير في الصراع بين منتجي البترول ومستهلكيه ؟ ان كثيرا من هذه العوامل تنتمي بدورها الى الميدان الثقافي والحضاري ، ولكن بمعنى واسع لهذه الكلمة .

اننا لا ننكر انه قد تكونت لدى الغرب على مر العصور صورة عن اهل البلاد الاسلامية يبدون فيها اشخاصا مغرقين في ملذاتهم الحسية ، ولا ننكر ان المسلك الشخصي لبعض العرب المعاصرين ، وخاصة اولئك الذين يراهم الغربيون في بلادهم ، يؤكد هذه الصورة التقليدية ، ويثبت في أذهان الغرب الفكرة القائلة ان العرب حسيون شهوانيون ، وأن مطالبتهم بمزيد من الاموال لقاء بترولهم ، وما يؤدي اليه ذلك في الغرب من ارتفاع للاسعار وتضخم ومتاعب اقتصادية متعددة ، انما تستهدف في النهاية اشباع نزواتهم ، اي أن الغرب — من وجهة نظر رجل الشارع فيه — يعاني من أجل ارضاء غرائز العرب ، وأن الانسان العربي يريد لملذاته مزيدا من المال الذي يستنزفه من جهد الانسان الغربي الجاد النشط .

على ان الكاتب لايعتقد أن هذا هو المستوى الذي ينبغي أن تناقش عليه المشكلة مناقشة موضوعية . فمن الواجب ان نحاول تجاوز الجوانب الفردية في تصورنا للموقف ، وندرك الوضع العام للبلاد العربية ، ثقافيا واجتماعيا واقتصاديا ، من حيث هي بلاد تخلفت في نموها وتستهدف تعويض تخلفها ، ومن حيث أن الفرصة المتاحة لها في الوقت الراهن ، بفضل أموال البترول ، هي الفرصة الوحيدة التي تستطيع ان تلحق فيها بركب التقدم ، ومن حيث أنها تنظر الى الغرب على انه ملزم بأن يرد اليها دينا متراكما ، هو دين الاستغلال الطويل لثرواتها بأبخس الاثمان .

هذه العوامل تنتمي الى صميم الميدان الثقافي والحضاري ، مفهوما ، بمعناه الواسع . فليس في وسع المرء ، حين يتحدث عن دور القيم الحضارية في الصراع البترولي ، ان يغفل عنصر الكرامة الذي يبعثه وجود الثروة البترولية في البلاد المنتجة . ذلك لان هذه البلاد ، بعد أن مرت بفترة طويلة من الخمول والتدهور ، في وجه تقدم غربي ساحق منذ مطلع العصر الحديث . وهي فترة كان الشرق الاسلامي فيها سلبيا ، على الصعيد الحضاري ، يعتمد معنويا على ما يقدمه الغرب ، قد اصبحت — بفضل البترول — شاعرة بالقدرة على العطاء، وعلى اتخاذ مواقف ايجابية ، وبأن لديها مصدرا هاما للقوة ازاء حضارة ظلت تملك كل ينابيع القوة ردحا طويلا من الزمان . قد يكون امتلاكها لهذه القوة الجديدة امرا راجعا الى الصدفة المحض ، وقد يكون « ضربة حظ » اصابت بعض البلدان ولم تصب البعض الاخر ، ولكن هذا كله لا يمنع من النظر الى البترول على انه وسيلة لاسترداد الكرامة التي ظل الشرق الاسلامي يفتقدها طويلا ، ووسيلة للشعور بعنصر من التفوق ازاء حضارة كانت ترى نفسها متفوقة في كل شيء . وحتى لو قال البعض ان ذلك شعور زائف ، فسيظل من الصحيح ان العرب محتاجون اليه ، وسيظل من الصحيح ان من حق المرء ان يعتز بما يملك ، ويستغل القوة التي يكتسبها بفضل ما يملك الى اقصى حد

متاح له ، وسيظل من الصحيح ان العرب يستطيعون بفضل بترولهم ، لا ان يستغنوا عن المساعدات الغربية فحسب ، بل ان يقفوا موقفا يتقدم فيه الغرب اليهم طالبا المساعدة ، حريصا على التودد والتقرب اليهم . وهذا تعويض معنوي عادل عما ظلوا يعانون طويلا على يد الغرب من هوان .

ولو شئنا ان نعبر عن هذا الموقف الجديد — وهو موقف حضاري في صميمه — تعبيرا فلسفيا ، لكان من الواجب ان نتأمل المسألة في ضوء ذلك التقابل الذي وضعه بعض الفلاسفة المعاصرين بين « الوجود being و eter الملك having و avoir (أو بلغة ابسط : بين « أن تكون » و « أن يكون لك .. ») فالأول هو بحث الانسان في اعماقه عما ينتمي الى صميم كيانه ، والثاني هو سعيه الى الاستحواذ واضافة اشياء محيطة به ، لا تنفذ الى صميم وجوده . وربما بدا لاول وهلة أن العرب يستغلون بترولهم من اجل السعي الى مزيد من « الملك » ، لانهم ينشدون المزيد من الاموال والمزيد من المقتنيات التي يجلبها المال ، ويحيطون انفسهم بشتى المنتجات التي يجلبونها تامة جاهزة ، دون ان يصنعوها او يشاركوا في المعاناة التي ادت الى اختراعها ، ومن ثم كانت تلك المقتنيات بالنسبة اليهم مجرد « اضافات » خارجية لا تؤثر في صميم وجودهم .

على ان هذا لا يعدو أن يكون وجها واحدا للمشكلة . ولو تأملنا الامر بمزيد من العمق لوجدنا أن الموقف البترولي للعرب يجمع بين « الملك » و « الوجود » ، أو هو « الملك » الذي يتحقق به « الوجود » ، لان ما يطالبون به ليس المال فحسب ، بل الاحساس بالكيان ، واسترداد الكرامة ، والشعور بأن لهم في هذا العالم دورا ينبغي أن يعمل له حساب .

ومما يزيد من اهمية هذا العامل ، أن ظهور البترول في هذه البلاد قد حدث في نفس الفترة التي سعت فيها هذه البلاد الى الاستقلال وتحقيق الذات . ففي البعض منها (كالعراق ، والجزائر ، وليبيا) ظهر البترول في غمار معركة السيادة القومية ضد الاستعمار الأجنبي المباشر . وفي بعضها الاخر (الكويت ، السعودية) كانت الشركات الاجنبية تمثل « دوله داخل دولة » ، وكان هناك شعور جارف بضرورة التعويض عن التحكم والنهب الذي ساد خلال عشرات السنين ، واحساس بضرورة تأكيد المجتمع لهويته في وجه محاولات الاذلال والاستغلال .

أمثال هذه العوامل الثقافية هي التي ينبغي ، في رأينا ، ان تؤخذ في الاعتبار عند مناقشة موضوع المواجهة البترولية ، وهي التي يستطيع الغرب ، لو أحسن تفهمها ، ان يجنب نفسه كثيرا من المصاعب في تعامله مع العالم العربي ، ويضمن انتظام تدفق الطاقة الحيوية في شرايين صناعاته واعصاب حياته الاقتصادية .

القضيـــــة الخامســـة

وهنا نصل الى القضية الخامسة ، والاخيرة ، وهي التي تمثل الهدف الذي عقدت من اجله الندوة وهو الرغبـــة في ايجاد الوسائـــل الكفيلة باحـــلال التعاون بين منتجي البترول ومستهلكيه محل المواجهة .

واول ما ينبغي ان نلاحظه في هذا الصدد ، هو ان الغرب ذاته ، بفضل تراث طويل تراكم لديه في استخدام القوة ، هو الذي يشكك العرب في امكان احلال التعاون محل المواجهة . فلو كان الغرب يفهم جيدا مشاعر الكرامـــة والرغبة في استرداد الذات ، التي يثيرها وجود البترول في نفوس العرب ، لما ظهرت لديه ردود الفعل العنيفة التي نسمع عنها بين الحين والحين . فقد تحدث وزير الخارجية الامريكي ، كما تحدث غيره تلميحا او تصريحا ، عن احتلال منابع البترول اذا دعت الضرورة . وفي ضوء ما قلناه من قبل ، لا يمكن ان يتصور المرء رد فعل اشد غباء من هذا . ولا يرجع هذا الغباء فقط الى استحالة تنفيذ هذا التهديد عمليا في عالم الربع الاخير من القرن العشرين ، او الى ما يشوبه من قصور في الرؤية الاستراتيجية والعسكرية والسياسية ، بل ربما كان الاهـــم من هذا هو ما يدل عليه من عجز تام عن فهم سيكولوجية الشعوب التي اصبحت تملك البترول . فاسوأ طرق الرد على اعتزاز الشعوب بكرامتها هو التهديد بالغزو ، بل ان التهديد باستخدام العنف قد يجعل هذه الشعوب تفكر جديا في اساليب عنيفة مضادة ، مما يؤدي بالفعل الى حدوث المجابهة الخطرة .

ان عصرنا الحالي هو عصر القوة القصوى : عصر الاسلحة الفتاكة التي تتطور كل يوم ، ووسائل الدمار الشامل التي تزداد فاعليتها بلا انقطـــاع . ومع ذلك ففي عصر القوة القصوى هذا يغدو استخدام القوة امرا يزداد صعوبة كل يوم ، اما استخدامها في صدد مشكلة حساسة كمشكلة البترول ، وفي منطقة حساسة كالشرق الأوسط ، فيكاد يكون امرا مستحيلا .

اما سبب الاستحالة فهو ، ببساطة شديدة ، الانقســـام العـــالمي الى معسكرين ايديولوجيين شبه متعادلين في القوة ، ووقوع منطقة الشرق الاوسط ـــ جغرافيا ـــ فيما بين هذين المعسكرين . ولو تصورنا ان الثروة البترولية كانت قد اكتشفت في اواسط القرن التاسع عشر ، مثلا ، لما ادى ظهورها الى احداث اية مشكلات أو مجابهات ، ولما احتاج الى مؤتمرات أو ندوات ، اذ كان الموضوع سيحل عندئذ بالطريقة الكلاسيكية التي اتبعها الغرب عشرات المرات في القرن الماضي ، اعني الاحتلال والاستعمار المباشر ، والانتفاع التام من الموارد المكتشفه مع حرمان اهلها من كل شيء . هذا هو الحل الاسهل ، والاضمن ، بالنسبة الى الغرب ، وهو الذي اعتاده طويلا في عصور سابقة ، مما ادى

بأقطابه الحاليين الى أن يعودوا يهددون به من آن لآخر ، وهو تهديد يعبر ، في واقع الامر ، عن أمنيات مكبوتة ونزعات عدوانية موروثة . غير ان عصرنا الحالي ، بما فيه من انقسام أيديولوجي وتوازن في القوى العالمية ، قد جعل مثل هذا الحل مستحيلا . فمجرد وجود معسكر آخر قوي ، الى جانب المعسكر الغربي ، تتاخم حدوده بلاد الشرق الاوسط المنتجة للبترول ، أو تقترب منها اقترابا شديدا ، ومجرد وجود مبدأ الردع النووي المتبادل بين الدولتين العظميين اللتين تقف كل منهما على رأس أحد المعسكرين ، يجعل الالتجاء الى الحل الجذري الكلاسيكي أمرا عفا عليه الزمان .

ومن هذه الزاوية يمكن القول ان اطلاق اسم « المواجهة » على الوضع القائم بين منتجي البترول ومستهلكيه لم يصبح ممكنا الا لان هناك معسكرا آخر يقف مترصدا للمعسكر الغربي المستهلك لبترول الشرق الاوسط والتطلع اليه ، بحيث يجوز لنا أن نقول ، بمعنى ما ، ان البلدان المنتجة للبترول تفيد من وجود هذا المعسكر الآخر بالنسبة لثروتها ورخائها وبقائها آمنة من الاحتلال ، وكذلك قدرتها على « المواجهة » والمساومة والتحكم في الاسعار والانتاج ، اذ أنه لو لم يكن هذا المعسكر الآخر موجودا ، فما الذي كان سيمنع الدول القوية المحتاجة الى بترول الشرق الاوسط من تطبيق « الحل الجذري » على منابع البترول في أول فرصة ممكنة ؟

المهم في الامر ، اذن ، ان حقائق العصر الحاضر ، وسماته الخاصة ، هي التي جعلت من الممكن قيام مجابهة ومواجهة بين بلدان ضعيفة هي تلك التي تنتج البترول وبلدان قوية ذات ماض استعماري عريق هي تلك التي تستهلكه في العالم الغربي . وحقائق هذا العصر هي التي جعلت البلاد المستهلكة تفكر في المشكلة من زاوية جديدة ، هي زاوية الدخول في صفقات شاملة مع بقية دول العالم ، بدلا من السيطرة المباشرة على ماتحتاج اليه من موارد الغير .

وهكذا اصبح البترول من أهم البنود التي تسعى الدول الغربية الى ادراجها ضمن ما تسميه « **بالصفقة الشاملة أو الكوكبية** » **Planetary Bargain** التي ينبغي أن تحل من خلالها مشكلات اقتصادية كثيرة في أواخر القرن العشرين وربما في القرن الحادي والعشرين .

وتعبير « الصفقة الشاملة أو الكوكبية » تعبير جديد لم يظهر في لغة السياسة الدولية الا في السنوات الاخيرة . وكل من اللفظين المستخدمين في هذا التعبير يحتاج الى تعليق :

أما كلمة « الصفقة » فتعبر ، كما قلنا ، عن حقيقة أساسية في عصرنا الحاضر ، وهي استحالة اللجوء الى القوة السافرة نتيجة للردع المتبادل بين

قوتين عظميين متكافئتين . و « الصفقة » تعني تبادل المصالح ، أو الوصول الى حل وسط ، وتعني السعي الى التوفيق بين مطالب الطرفين ، مما يحتم قيام كل منهما بتنازلات . وحين تصبح الموارد الاستراتيجية الحيوية مـــوضوعا « لصفقة » تعقد بين الاقوياء والضعفاء ، بدلا من أن تكون موضوعا « لغزوة » تتحول فيها تلك الموارد على الفور الى « غنيمة » يظفر بها الطرف القوي وحده، فان هذا يعد دليلا على أن النسور التي لم تكن تعرف بالامس الا الانقضاض على الفريسة قد استؤنست وانتزعت مخالبها الى حد بعيد . أما لفظ « الشاملة أو الكوكبية » فيدل على الوعي بظهور نوع جديد من المشاكل التي لا تمس أطرافا معدودين ، بل تؤثر في العالم بأسره ، ولا يمكن حلها الا من خلال طريقة في التفكير تأخذ في اعتبارها كوكبنا الارضي بأكمله . فالعالم يتحول ، على نحـــو متزايد ، الى وحدة واحدة ، والاعتماد المتبادل بين اجزاء العالم بعضها على البعض اصبح حقيقة واضحة . والعصر الجديد قد جلب معه نوعا جديداً مـــن المشكلات التي يستحيل ايجاد حلول جزئية لها ، بل ينبغي أن تحل على نطاق العالم بأسره .

فلنأخذ مثلا مشكلة الطعام . لقد كانت هذه المشكلة ، حتى عهد قريب ، عد مشكلة داخلية تخص كل دولة على حدة . وكان على كل حكومة ان تحل في اخلها مشكلة الجوع ، فتكون النتيجة هي نجاح بعض البلاد في توفير الغذاء لمواطنيها الى حد التخمة ، واخفاق البعض الآخر الى حد الاقتراب من المجاعة. شيئا فشيئا اخذ يتضح للعالم ان المشكلة ليست داخلية فحسب ، بل ان هناك تعادا متبادلا بين اجزاء العالم بعضها وبعض في توفير الغذاء اللازم لسكان الارض ، فضلا عن أن المشكلة ترتبط ارتباطا وثيقا بموضوعات أخرى ذات طاق عالمي : مثل الانفجار السكاني في العالم ، والتكنولوجيا الجديدة في زراعة ، واستكشاف موارد جديدة للغذاء (كالمحيطات) ، بالاضافة الى أن ا ابعادا سياسية واستراتيجية عالمية (ثورة الشعوب الجائعة واحتمالات ير اتجاهاتها الايديولوجية وما يترتب عليها من تغيير في توازن السيطرة عالمية) . وهكذا فان مشكلة الطعام تجر وراءها مجموعة من المشكلات ذات طابع العالمي الشامل : كمشكلة الزيادة الرهيبة في السكان ، وخاصة في المناطق تخلفة ، ومشكلة استغلال المحيطات ، التي تثير نزاعات دولية متزايدة ، مشكلة التوازن الاستراتيجي العالمي .

وقل مثل هذا عن مشكلة الموارد الخام عامة ، وما تثيره من مشكلات عية تتعلق بالاسعار والعلاقة بين المنتج والمستهلك ومدى الاستهلاك المعقول ذي لا يصل الى حد تبديد موارد العالم ... وكذلك عن مشكلات البيئة التي يرت في السبعينات بصورة حادة ، حتى اصبحت تعد ، في نظر البعض ،

المشكلة العالمية الاولى في عالم اليوم ، وهي مشكلة يستحيل حلها بطريقة جذرية الا بتضافر جهود العالم كله . وبالمثل يثير نظام النقد العالمي مشكلات ذات طبيعة تتجاوز الحدود الاقليمية . هذا ، بالطبع ، فضلا عن مشكلات الفضاء الكوني والاقمار الصناعية المستخدمة في الاستكشاف والاتصالات ، وكذلك مشكلات التسلح التقليدي والنووي والصاروخي ، الخ ...

تلك كلها مشكلات اكتسبت ، في العهد القريب وحده ، طابعا عالميا ، واخذت تعقد لها المؤتمرات والندوات التي تستكشف وسائل جديدة لحلها ، مختلفة عن الوسائل التقليدية التي درج العالم على اتباعها أمدا طويلا . وبطبيعة الحال فان مشكلة الوقود — والبترول بوجه خاص — تقف على راس هذه المشكلات جميعا ، سواء من حيث اهميتها الحيوية ، أو من حيث حاجتها الى حلول على المستوى العالمي الشامل .

كل هذا التفكير في البحث عن حلول شاملة ، وفي تأكيد مبدأ الاعتماد بدلا من مبدأ الانفراد — اعني النظر الى العالم على انه وحدة واحدة يعتمد أجزاؤها على البعض ، بدلا من النظر اليه على انه اجزاء منفصلة يمكن الانفراد بكل منها على حدة — لم يصبح ممكنا الا منذ اللحظة التي بلغت فيها القوة العسكرية درجتها القصوى ، وشلت فاعليتها فينفس الوقت الذي بلغت فيه اقصى مداها . فهنا تعد القوة العسكرية مثلا واضحا للجمع بين المتناقضات ، وللظاهرة التي تلغي ذاتها حين تؤكد نفسها الى اقصى درجة ، وللشيء الذي ينقلب الى ضده حين يبلغ حده . وبفضل هذا الجمع بين المتناقضات : أعني بين القوة القصوى والعجز عن استخدام القوة ، اصبح من الممكن في عالم اليوم ان تستمع الصقور الكاسرة الى مطالب الحمائم الوديعة ، ورات نفسها ملزمة بأن تجلس معها على مائدة مفاوضات واحدة ، وتدعو الى احلال « التعاون » محل «المواجهة» .

وفي مثل هذا الجو يتعين على الدول الكبرى — التي تستهلك البترول — ان تتفهم جيدا تلك الخلفيات الثقافية للدول المنتجة ، وان تعمل لها حسابا في عملية التفاوض ولا تخدع نفسها بالحلول السهلة التي تتصور فيها ان هذه الخلفيات تنحصر في العداء التقليدي بين عالم اسلامي وعالم مسيحي ، وهو العداء الذي تتخيل أنه ما زال ممتدا الى اليوم ، يمارس تأثيره على المفاوض وصاحب القرار السياسي من كلا الطرفين (*) فالخلفيات الثقافية للموضوع

(*) لا حاجة بنا الى أن نشير في هذا الصدد الى ان موقف بلد « مسيحي » مثل فنزويلا لا يختلف في جوهره عن موقف البلاد الاسلامية في الشرق الاوسط ، كما ان موقف بلد « غير مسيحي » مستهلك للبترول ، كاليابان ، لا يختلف ايضا في جوهرة عن موقف البلاد المسيحية المستهلكة ، وهذا في ذاته رد حاسم على محاولة اقحام العنصر الديني في المواجهة البترولية ، وتاكيد لاهمية العوامل الاخرى التي نركز عليها في هذا البحث .

اكثر تعقيدا بكثير ، واشد انتماء الى طبيعة العصر الذي نعيش فيه . ولا مفر للدول الكبرى المستهلكة ، اذا شاءت ان تتعامل بنجاح مع الدول المنتجة ، من ان تتفهم رغبتها في النهوض واسترداد الكرامة ، والمرارة التي تحس بها بعد الاستغلال الاستعماري الطويل ، وبعد اصرار بعض الدول الاستعمارية والامبريالية على تحقيق الدوام لهذا الاستغلال عن طريق خلق اسرائيل .

هذه كلها خلفيات تؤثر في المفاوض العربي تأثيرا لا شك فيه ، ويتعين على المفاوض الاجنبي ان يتفهمها وان يحترمها ، ويقدر تلك الحقوق التي يراها الطرف المنتج مشروعة . غير ان هذه الحقوق تلقى على كاهل الدول المنتجة بدورها واجبات لا ينبغي ان تقصر في ادائها . تلك هي واجباتها نحو نفسها ، ونحو امتها . فبقدر ما تطالب هذه الدول العالم المستهلك بأن يتفهم رغبتها في اللحاق بالحضارة الحديثة ، ويدرك ان تشددها في المفاوضات ليس مجرد رغبة في تحقيق التملك والاستحواذ ، بل هو قبل كل شيء رغبة في تحقيق الذات واستردادها ــ بقدر ما تفعل ذلك ، ينبغي ان تجعل من رغبتها هذه حقيقة واقعة يعترف بها الجميع . وعليها ان تدرك ان التاريخ سيصدر حكمه عليها في وقت ليس بالبعيد ، وسيكون حكمه واحدا من اثنين . فاما ان يقول :

هذه دول اتيحت لها فرصة ذهبية قصيرة الامد ، فاستغلتها افضل استغلال ، وانتقلت بفضلها من التخلف الى التقدم ، وضمنت لنفسها مكانا في عالم القرن الحادي والعشرين .
واما ان يقول :

هذه دول مرت بحلم وردي قصير ، وانتها فيه ــ بايسر جهد ممكن ــ فرصة لا تعوض ، فبددتها ولم تعرف كيف تستغلها ، وضاعت منها ــ الى غير رجعة ــ فرصة اللحاق بركب العصر .

وفي كلتا الحالتين ، سواء اكان حكم التاريخ ايجابيا ام سلبيا ، فان هذا الحكم لن يتوقف على البترول وعلى المال فحسب ، بل سيتوقف قبل ذلك على عقولنا ، واساليب تفكيرنا وعلى نوع القيم الثقافية التي نريد لها ان تسود .

المصادر : ــ

1 - Roux Jean - Paul. LISLAM EN OCCIDENT. Paris: (Payot), 1959 .

2 - Provencal , Levi . ISLAM DOCCIDENT. Paris: Maison Neuve, 1948 .

3 - Andrae, Tor . LES ORIGINES DE DISLAM ET LE CHRISTANISME . Paris : Maisonneuve, 1955 .

4 - Daniel, Norman . ISLAM AND THE WEST : THE MAKING OF AN IMAGE . Edinburgh University Press, 1966 .

5 - Southern, R . W . WESTERN VIEWS OF ISLAM IN THE MIDDLE . AGES . Cambridge, Mass . : 1962 .

6 - Gardet, Louis . L'ISLAM : RELIGION ET COMMUNAUTE' Paris : Desclee de Brouwer, 1067 .

7 - Austruy, J. LISLAM FACE AU DEVELOPPEMENT ECONOMIQUE Paris : 1961 .

8 - Gibb, H . & Bowen, H . ISLAMIC SOCIETIES AND THE WEST (2VOLS.). Oxford : 1057 .

9 - Hayek, M. LE CHRIST DE LISLAM. Paris : 1959 .

10 - Ledit, C. J . MAHOMET, ISRAEL ET LE CHRIST . Paris : 1956 .

11 - Monroe, Elizabeth . THE CHANGING BALANCE OF POWER IN THE " PERSIAN " GULF . 1972 .

12 - Monroe, Elizabeth & Malro, Robert . OIL PRODUCERS AND CONSUMERS : CONFLICT OR COOPERATION . 1974 .

13 - Erickson, E . W . & Waverman (ed) . THE ENERGY QUESTION UNIVERSITY OF TORONTO Paris, 1974 .

14 - Stephens, R . THE ARABS' NEW FRONTIER . London . Temle Smith, 1973 .

15 - Aspen Institute for Humanistic Studies . THE PLANETARY BARGAIN . 1975 .

16 - Aspen Institute for Humanistic Studies . FROM INDEPENDENCE TO INTERDEPENDENCE . Paper presented by Ralph L . Ketcham, 1975 .

★★★